انطلاق نشاط جمعيّة قدماء الصّادقيّة[*]

(مارس 1906)

1- المسامرات باللغة العربيّة

أسّس قدماء تلامذة المدرسة الصّادقيّة [ديسمبر 1905] جمعيّة قصدوا منها ما يقصد الأوروبيون من جمعيّاتهم المتنوّعة، وانتخبوا لرئاستها السيّد خير الله بن مصطفى المترجم بالمجلس المختلط، وقد ترسّم الناس فيه خيرا لما يظهره الرجل من إقامة شعائر الإسلام والغيرة على اللغة العربيّة والسعي إلى تنظيم الكتاتيب القرآنيّة على أسس عصريّة. وقد أراد أن يبرهن على هذا القصد الشريف في طالعة أعماله، فبذل مبلغا من المال على وجه القرض لتأسيس الجمعيّة واجتهد لدى إدارة المدرسة الصادقيّة في إعطاء مساحة من أملاكها لتشييد بناء يكون منتدى لهذه الجمعيّة. وقد طفح قلبي سرورا لهذه النهضة، وهي الضالة المنشودة التي كنت أدعو الله أن يمنّ بظهورها في البلاد التونسيّة، وكانوا يعلمون منّي هذه الأفكار الجائلة منذ زمان بعيد. ومن القرارات التي قرّرها مجلس هذه الجمعيّة إقامة دروس بالعربيّة والفرنسيّة يسامر بها الأساتذة المحاضرون. وقد أراد الرئيس أن يبرهن على عناية الجمعيّة باللغة العربيّة. فقرّروا أن تكون أوّل مسامرة تفتح بها المسامرات عربيّة يقوم بها أستاذ من المدرّسين الزيتونيّين. فزارني الرئيس واقترح عليّ أن ألقي درسا في ناديهم يجعلوه فاتحة أعمالهم العلميّة، وأكّد ذلك بكتاب استعمل فيه كلّ

عبارات التمجيد والتأكيد والرغبة، فلاح لي أن أستجيب لرغبتهم لفوائد شريفة، منها تدريب التونسيين على هذه المجامع العلميّة، لأنّنا نعلم أن السّمر قد أتى بفوائد جمّة للأوروبيّين، فما من صانع أو شغّال إلاّ ويحضر أندية المسامرات العلميّة في أوقات الفراغ ويستفيد منها ما يتعلّق بعلم الصحّة أو التاريخ أو السياسة أو الاكتشاف أو الاختراع أو الأدب ورقيّ اللّغة، فعمّ النور جميع الطبقات وارتفع حجاب الجهل. ومنها إقامة البرهان الساطع على أن اللغة العربيّة لغة راقية صالحة للخطابة والإرشاد في كلّ المواضيع، ولولا أنّ أهلها جهلوا قيمتها لأصبحت من أرقى اللغات، ولسلمت من المطاعن التي يصوّبها نحوها كلّ أجنبي أو ناشئ جاهل.

اخترت أن ألقي على القوم ثلاث مسائل تاريخيّة، المسألة الأولى: خلافة الوليد بن عبد الملك، لأنّ هذا الخليفة الأموي قد امتاز بتأسيس الجامع الذائع الصيت بدمشق، وإنشاء المستشفيات للمرضى والعجّز والعميان، وغير ذلك من شارات التمدّن العربي الذي أخذ يتّسع نطاقه. والثانية: خلافة أبي جعفر المنصور العبّاسي، لأنّ عصره قد امتاز بتأسيس مدرسة علميّة ببغداد، وترجمة العلوم الطبيّة والفلكيّة إلى اللغة العربيّة. والثالثة: خلافة حفيده المأمون، لأنّ عصره قد امتاز بازدهار التمدّن العربي والإكثار من ترجمة الفنون إلى العربيّة وتطوّر مؤسّسة "بيت الحكمة" التي أنشئت على عهد والده هارون الرشيد، ويكفيك أنّه الدور الذي نضج في التمدن الإسلامي[1].

ألقيت هذه المسامرات الثلاث بمسمع من الناشئة التونسيّة التي كانت تعجب بمحاسن لغتها، وجمع غفير من طلبة الجامع الأعظم وكثير من المستعربين الفرنسيّين. وحضر في أوّل مسامرة مدير العلوم والمعارف ماشويل، ولم يظهر منه أدنى استحسان، وكيف يستحسن هو ومن كان على شاكلته حركة اجتماعيّة تكفل بإحياء اللغة العربيّة التي هي قوام الشعب التونسي مع الدّين؟...

2- إصلاح نظام التعليم بالمدرسة الصادقيّة

لقد ظنّت هذه الجمعيّة الغرور أنّها تنجح فيما تؤمّله من إصلاحات عديدة، منها إصلاح نظام التعليم بالمدرسة الصادقيّة. فأثارت حربا قلميّة على مدير العلوم والمعارف للمطالبة بإصلاح المدرسة الصادقيّة وإنفاق أموالها الطائلة في مصالح التعليم. واحتجّت عليه برداءة المدرسة وقصور تعليمها واستعانت على انتقادها بالجرائد المحليّة التي كانت يومئذ تنتقد المدير انتقادا مرّا، وصادف أن كان بين الكاتب العام للحكومة برنار روا ومدير المعارف شيء من الشقاق الخفي.

وإثر تشكّي الجمعيّة والصحف من سوء حالة المدرسة الصادقيّة تقرر تشكيل مجلس تحت رئاسة مدير العلوم والمعارف يضمّ تسعة ذوات من التونسيّين والفرنسيين[2] يبحثون بحثا مدقّقا عن وجوه الخلل ويضعون قانونا للإصلاح، وكان من جملة الأعضاء العبد الفقير إلى ربّه. وكان الأغرار يظنّون أن هذا المجلس سيرجع المدرسة إلى الحالة التي كانت عليها من قبل، وما علموا أن السياسة تتلقّفها تلقّف الكرة وتذرّ

الرماد في أعين الناقدين حتّى تسكت الصحف في انتظـار النتيجـة مـن هذا المجلس.

اجتمعنا وتكرّرت اجتماعاتنـا وطـال حـديثنا، فمـاذا كـانت النتيجـة؟ لقـد كتموا عنّا ميزانية المدرسة ولم يطلعونا على قليـل ولا كـثير مـن دخلهـا وخرجها، وزعموا أنّنا لا دخل لنـا فـي هـذه المسـألة، والمـال هـو روح الإصلاح. ولوضع الدسيسة من إقامة هذا المجلس أدخلت على التعليـم بعض تنقيحات لا أهميّة لها ولا يحصل منها أيّ رقيّ ولا تربية، وقد كـان مؤسّسها خير الدين يرمي إلى جعلهـا مدرسـة لتخريـج رجـال يخـدمون مصالح هذه البلاد المسكينة.

وقد كلّفت بالنظر في التعليم العربي، فوضعت فهرسا جديدا يشمل كتبا حديثة تدرس في مدارس مصـر. وتلـك الكتـب علـى بسـاطتها وحسـن أسلوبها تفيد الناشئة في التمرّن على اللغة العربيّة وآدابها وليست جافّة كالكتب التي تدرّس بالجامع الأعظم. كما كلّفت بوضع كتاب فـي الفقـه المالكي وحرّرت تقريرا ضافيّا فـي بيـان وجـوه الخلـل وضـمّنته بعـض المطالب منها: الزيادة فـي وقـت التعليـم العربـي، حيـث أن لـه سـاعة فقط، مع كثرة الفنون، وبهـذا تعـرف درجـة التعليـم العربـي فـي نظـر القوم. ويكفيك أنهم يسمّونها في تقاريرهم الرسميّة"عـادة"، وهـم قـد عاهدونا على احترام عوائدنا! ولما سمع الرئيس هذا الطلـب أجـاب بلا مكرّرة، وله الحـقّ فـي رفضـه لأنـه ينقـض غزلهـم ويبـاين سياسـتهم. وطلبت إلغاء الكتب القديمة وتنفيذ البرنامج الجيـد الـذي وضـعته، فنفّـذ

على كره واستياء مـن مـدير المدرسـة الصـادقيّة (دلمـاس) المتعصّـب على اللّغة العربيّة وأبنائها[3].

ولم نظفـر بنتيجـة مـن هـذا المجلـس الحافـل إلاّ فـي إلـزام مدرّسـي العربيّة بإقراء تلك الكتب الناجعة التي اخترناها لهم لسهولتها واشتمالها على خطب ورسائل سلفنا، وهـو لبـاب لغتنـا وبـه يتوصّـل التلميـذ إلـى تكوين ملكة اللّغة العربيّة.

أمّا تأليف الفقه فإنّهم لم يسألوا عنه ولا يزال إلى اليوم بالمكتبـة أنتظـر له فرصة الانتشار.

(*) آثار الشيخ محمد النخلي:«سيرة ذاتية وأفكار إصلاحيّة»، تحقيق حمادي السّاحلي، ص 66 – 67 – 68، بيروت 1995.

(1) لقد ألقيت هذه المحاضرات الثلاث بعنوان « نضارة التمدّن الإسلامي» ونشرت مقدمتها تباعا في مجلـة «خيـر الـدين» لصاحبها محمد الجعايبي.

(2) أعضاء لجنة إصلاح التعليم بالمدرسة الصادقية هم: برنار روا الكاتب العام للحكومة وماريوس دلماس مدير الصـادقية وعلي باش حانبه وكيل الصادقيّة والصادق غيلب شـيخ المدينـة ومحمـد الأصـرم رئيـس الجمعيّـة الخلدونيّـة وخيـر الله بـن مصطفى رئيس جمعية قدماء الصادقيّة والبشير صفر رئيس جمعية الأوقاف والشيخ محمد النخلي المدرس بجامع الزيتونة وعبد الجليل الزاوش عضو المجلس البلدي لمدينة تونس.

(3) نشير في هذا الصدد إلى الحملة التّي شنّها الشيخ سليمان الجـادوي علـى دلمـاس فـي جريـدته الهزليّـة النقديّـة «أبـو نوّاس»،

المصدر: المجلّة الصّادقيّة عـــ 02ـدد أفريل 1996